القضية الفلسطينية في الشعر الجزائري

خلال الفترة 1914-1954.

د. كمال عجالي
كلية الآداب واللّغات. جامعة باتنة.

توطئة:

الحقيقة التي لا يمكن إنكارها هي أن الجزائر لم تنفصل يوما من الأيام عن انتمائها الحضاري العربي والإسلامي، و لم تتخل ولن تتخلى عن التزاماتها القومية تجاه أمتها العربية ومحيطها الإسلامي. وهذه حقيقة لا يمكن أن يتنازع فيها أو يشك اثنان. وخير دليل عما أقول موقف الجزائر من القضية الفلسطينية خلال قرن كامل.

فعلى الرغم من الكوارث و المصائب التي تعرض لها الشعب الجزائري، فقد ظل موقفه من القضية الفلسطينية إيجابيا وبدرجة عالية من الحس والمسؤولية الدينية والقومية. إذ لم يغب عن حسها وشعورها ما يلاقيه الشعب الفلسطيني من آلام

وأحزان بسبب المحنة التي عرفها من جراء الاعتداء على أرضه ووطنه؛ فلسطين بما تحويه من مقدسات وتراث وارث وتاريخ وأصل وانتماء.

وكما عرف الجزائريون الاستعمار وويلاته وخبروا رجسه ودنسه وعانوا منه الأمرين غدوا يتألمون لآلام إخوانهم من فلسطين، ويفرحون لفرحهم. ذلك ما سنعرفه في هذا البحث الذي يعرف من خلاله الاخوة القراء صورة من صور التضامن والتلاحم الجزائري مع القضايا القومية لأمتنا العربية وما القضية الفلسطينية إلا واحدة فقط من القضايا الكثيرة في تاريخ امتنا المجاهدة المكافحة المناضلة من أجل حقوقها الأزلية العادلة.

تمهيد:

لقد حاول الاستعمار الفرنسي منذ نزوله على الربوع الجزائرية في جوان 1830، أن يضرب عليها حصارا، ويقيم حولها جدارا سميكا وسياجا شائكا. كل ذلك ليفصلها عن جيرانها ويقطع عنها كل اتصال بالعالم الخارجي، وخاصة منه العالم العربي.

ولكن هيهات أن تكسر إرادة الشعوب، فقد حطمت الجزائر تلك القيود والعوائق وربطت مع أشقائها وإخوانها علاقات وصلات متينة متفاوتة الدرجة، بطريقة وبأخرى. ولم تكن أية حادثة تصيب العالم العربي والإسلامي إلا وكان للجزائر حضور وصدى. ومن أهم القضايا التي تجاوب معها الشعب الجزائري برغم محنة الاستعمار والظروف القاسية التي فرضها عليه، القضية الفلسطينية منذ

بداية ظهورها وبروزها على سطح الأحداث، بعد مؤتمرات وكولسة كان يحاك فيها ما يحاك للأمة العربية والإسلامية جمعاء.

لقد كان الشعب الجزائري ينظر إلى القضية الفلسطينية كشيء مقدس لا يمكن أن يستهان به، وشيء قومي لا يمكن التفريط فيه، مع العلم أن الجزائريين لم يكونوا بداية النهضة العربية الحديثة يفرقون بين ما هو قومي وما هو إسلامي.[1]

واهتمام الشعر الجزائري بقضية فلسطين والقضايا العربية عموما أمر لا نقاش فيه. فهو معروف لدى الدارسين للشعر الجزائري، وذلك راجع في نظري إلى عمق الإحساس والشعور بالانتماء القومي والديني -عروبة وإسلاما- عند الفرد الجزائري. الأمر الذي جعل كل القضايا العربية تنطبع في نفسه وتسجل في شعره ونثره. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "وهناك قضايا عربية كثيرة عاشتها الجزائر في أدبها وفكرها، وفي أعصابها وجهادها، منها قضية فلسطين واستقلال أجزاء من الوطن العربي كالسودان وليبيا وثورة مصر وإنشاء الجامعة العربية والمعارك الأدبية ومناسبات التكريم أو التأبين لعظماء الشرق من كتاب وشعراء وقادة ومصلحين".[2]

إن اهتمام الأدباء الجزائريين، بالقضايا العربية والإسلامية كان بمثابة صمام الأمان، الذي من خلاله يتم التنفيس عن ذلك الكبت والقهر الذي عاناه الوطن الجزائري من قيود الاستعمار الفرنسي الغاشم. كما كان يثبت فيه صراحة أو ضمنيا لفرنسا أنه شعب عربي مسلم يربطه بالعالم العربي والإسلامي أكثر من رابط ووشيجة، برغم كل ما تعمله فرنسا نحوه من مسخ للشخصية العربية

الإسلامية وطمس للهوية، وبرغم ما تدعيه من فرنسة وإدماجه في الدولة الأم – فرنسا– وبئست الأم هي.

كما كان اهتمام الشعب الجزائري بالقضايا العربية والإسلامية يعده واجبا لا منة فيه ولا محاباة. فالرق العربي كله ملاذ روحي للإنسان الجزائري والملجأ الذي تجد فيه الذات الجزائرية المقهورة روحا وريحانا ماديا ومعنويا. فالشرق كله حرم العروبة المقدس ومهبط الوحي، ومنجم الانتماء الحضاري للجزائر. يقول الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة في هذا المضمار:

يَا شَبَابُ اتَّجِهْ إِلَى الشَّرْقِ واحْفَظْ ... بِكُلِّ كَنْزٍ لَهُ إِلَيْهِ انْتِسَابِ

إِنَّمَا الشَّرْقُ لِلْعُرُوبَةِ كَهْفٌ ... آمِنِ الظِّلِّ بِالأَذَى لاَ يُصَابِ

إِنَمَا الشَّرْقُ نِسْبَةُ الْعُرْبِ الأَحْرَا ... رِ لَمْ تَنْقَطِعْ لَهُ أَسْبَابِ[3]

ومن أبرز القضايا العربية –كما قلت– التي اهتم بها الشعب الجزائري وشعرائه "قضية فلسطين" فكتب فيها القصائد و المقالات العديدة، وشرح خلفياتها وأبعادها للخاص و العام من أفراد الشعب.+

وللتفصيل أكثر في هذه الدراسة، يحتم علينا البحث أن نتطرق إلى نقطة مهمة جدا في تاريخنا الثقافي والفكري في الجزائر، وهي وعي بعض مثقفينا المبكر بخطر الصهيونية على الأمة العربية والإسلامية ومخططاتها الجهنمية الهدامة منذ القديم[5]. وأتضح أكثر وبرز للعيان بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وخاصة بعد وعد بلفور في نوفمبر 1917[6]. وربما يعود هذا الوعي المبكر إلى ما عاناه الجزائريون من تصرفات اليهود الذين احتضنتهم الجزائر قرونا عديدة* حين تنمروا وردوا الجميل بعد أن استأسدوا في ظل الامتيازات التي أغرقتهم بها الإدارة

الفرنسية في الجزائر منذ قانون كريميو في سنة 1871، الذي منحهم بالجنسية الفرنسية وما يتبعها من حقوق وامتيازات دون الجزائريين.

و المتفحص في تاريخ الأدب الجزائري الحديث، يلحظ أنه لا تكاد "تخلو جريدة أسبوعية أو مجلة شهرية كانت تصدر في أوائل القرن من صفحات تسرد وقائع الأحداث في فلسطين و لم يكن الموقف مجرد سرد إخباري لها، بل صب في قالب تعليق موضوعي معبر عن الشعور القومي الكامن. وقبل الوصول إلى الوقائع وسردها ومواكبتها، والتعليق عليها كانت هناك الفكرة المتنبئة بهذه الأحداث المبكرة في تنبؤها".[7]

وهذا النموذج لمثل تلك الكتابات المبكرة المحذرة من خطر الصهيونية. كتب أبو اليقظان وهو أحد أقطاب الصحافة والشعر الأوائل قال: "إن كل من يمعن النظر، ويدقق البحث في قوادم المسألة وخوافيها، يجد أن المسألة ليست المبكى و البراق، وإنما حقيقة المسألة هي السرطان الصهيوني الناشب مخالبه في خناق العالم الظاهرة عوارضه الراهنة في فردوس الإسلام وجنة الأراضي ومقر أنبياء الله فلسطين".[8]

إن المتمعن في النص أعلاه، يدرك أن أبا اليقظان، كان يدري تمام الدراية بمخططات الصهيونية الخفية وأهدافها البعيدة المرمى التي كان يتكتم عليها الصهاينة وراء ما يذيعونه مستعطفين العالم مثل مسألة، المبكى والحائط و الهيكل وما شابه ذلك، وكلها دعاوى باطلة ملفقة، ظاهرها الأهداف الدينية وباطنها المشاريع الاستعمارية. وعليه يمكن أن نقول انه "وبالرغم من أن الجزائر عرفت تأخرا عن الشرق العربي في يقظة القصيدة، فإن القصيدة لم تعرف هذا التأخر في يقظة الوعي

القومي في أبعد حدوده. وعندما تفاجئنا النصوص المبكرة تعالج القضايا العربية في أقصى المشرق. نصوص لم يتم لها حتى البناء المحكم و الوزن المتسق فإن هذه الظاهرة تؤكد من مرائها حقيقة لا تقبل الجدل وهي: أن هذا الشعب عرف سبقا في الوعي القومي وسمو في استشراف قضاياه، الأمر الذي لا يتماشى مع ما كانت تنعت به الجزائر من عقم في هذا الوعي".[9]

تنبه الجزائريون لأحلام اليهود الصهيونية مبكرا لما لمسوه في تصرفاتهم، وسلوكاتهم المريبة منذ حقبة طويلة من تاريخ وجودهم بين ظهرانيهم، إذ "أن اليهود في الجزائر منذ أيام الأتراك وفي عهد مصطفى باشا كانوا يضيقون الخناق على أهالي البلاد باحتكاراتهم الاقتصادية النهمة وعندما وقع الاحتلال الفرنسي للبلاد عملوا إلى جانبه واشتغلوا سماسرة وتراجمة واغتنموا فرصة هذا التحول من عهد إلى آخر فأثروا ثراء فاحشا، وراحوا يضغطون بوسائلهم الربوية الفضيعة على الأهالي ويتخذون منهم بقرة حلوبا يستدرونها بوسائل الحيلة والمكر، تبدأ من طرف الأهالي بالاستدانة البسيطة وتنتهي من طرف اليهودي بالاستيلاء على الأرض والعقار، وزاد لمشاعر النقمة و السخط في قلوب المسلمين تأثيرا ما رأوه منهم من سعي حثيث لفتح الحانات ودور اللهو والقمار مما كان له أثر سيء على الناحية الاجتماعية أيضا"[10].

فلا غرابة إذن أن تكون ردة الفعل عند الجزائريين عنيفة وقوية تجاه ما يقع في فلسطين من طرف اليهود الصهاينة الغادرين. قال محمد العيد آل خليفة :

قلْ لابْنِ صَهْيونَ اغْتَرَرْتَ فَلاَ تَجرْ إنَّ ابْنَ يَعْرَبَ ناهِضٌ للثَارِ
سَتَرَى أمَانِيكَ التِي شَيَّدْتَهـــــا مَنْهَارَةً مَعَ رَكْنِكَ المنْهـــارِ

القدْس لابْنِ القدسِ لاَ لِمشـــرَّدٍ متَصَهْيِنٍ وَ مهَاجِرٍ غَـــدَّار[11]

فلسطين في الشعر الجزائري من 1930-1948:

لا شك أن الدارس للشعر الجزائري الحديث يجد أن تطورا ملحوظا في الشكل و المضمون طرأ على الشعر بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين في 5 مايو 1931، [12] ومع ما كان يعانيه المجتمع الجزائري من قهر استعماري، فانه لم ينكَفأْ على نفسه ويتقوقع في ذاته، بل نجد الشعراء تشرئب أعناقهم إلى ما كان يحدث في فلسطين من أحداث. فها هو ابن العقون مخاطبا القدس الشريف في تفجع وألم وحسرة.

نَاشَدْتكَ اللـــهَ يا قدسَ الْعروبَة لاَ تقمْ حسَابَا لمـــنْ يَروم تَمْـــويهاَ
فَمَا طمـــوح يَهودَ الْعَصْرِ يَنْفعهمْ وَ لاَ يَنَالونَ إلاّ الْمَقْتَ تَشْـــويهاَ
يَا أمَّةَ الْقدسِ لاَ يحْزِنْكِ مَطْمَحهمْ فَإنّ للْقدْسِ رَبًّا سَوْفَ يَحْمـــيهَا
أمَّا الْجَزائِر فَهـــيَ مِنْ مصَابكـــم فِي حَرِّ نَارِ الأَسَى تَشْكو لِبَارِيهَا
آهٍ عَلَى أمَةِ الْقدْسِ التِي بَسَطَـــتْ للْجَارِ إحْسَانَهَا وَسَلْ مَجيرِيـــهَا
آهٍ عَلَى كَأسِ ذلٍّ وَهِيَ تَرْشفـــهَا وَعَنْ صَغَـــارِ كَـــآبَةٍ تقَاسِيهَـــا[13]

و لا غرابة في ذلك، فهذا ديدن الشاعر الجزائري منذ بداية القرن حيث كان مرتبطا بما يجري في بلاد الشرق و"...قد كان الأدباء الجزائريون دائمي التطلع إلى ما يجد في الشرق من أحداث وطنية أو أدبية، وكانوا حريصين على ألا تفوتهم المشاركة في التعبير عن هذه الأحداث التي يعدونها من صميم حياتهم القومية".[14]

بقي الجزائريون يتابعون الأحداث المستجدة في بلاد الشرق ومنها ما كان يحدث في فلسطين، متطلعين إلى كل ما يكتب عنها أو يصل من أخبار. وقرأوا في الصحف المختلفة القصائد و المقالات العديدة خلال هذه السنوات[15] المبكرة للقضية الفلسطينية. والمليئة بالوقائع والأحداث سواء في داخل الجزائر أم خارجها في البلاد العربية الشقيقة "ويوم بدأت خيوط المؤامرة تتضح والأطماع الصهيونية تكشر عن أنيابها وتتحول الوعود إلى صراع دموي في قلب الوطن الجريح في ثورة 1936 التي حمل فيها الشاعر الفلسطيني الشهيد روحه على راحته.

كانت في الجزائر زفرة شرعية جريحة كأنك بها تصعد من سفوح الجليل لا من قمم الأطلس كان هناك في الجزائر جناح شعري يروح ويغدو على مصارع الشهداء هناك. كانت هنا الصرخة التارية تستفز أبناء الجزائر لنجدة الوطن المنكود. كان هذا التحدي المارد لمشاريع الصهيونية ومناوراتها المفضوحة".[16]

لقد ارجع الشعراء الجزائريون كل المصائب التي لحقت الشعب الفلسطيني في السنوات الأولى للقضية إلى عهد بلفور المشؤوم(2 نوفمبر 191) وغدر الإنجليز الذين مكنوا اليهود من الاستيلاء على الأراضي والبلدات العربية الفلسطينية. ووقفوا بحزم ضد القسمة الظالمة التي قسمت بمقتضاها فلسطين إلى قسمين بين العرب واليهود في فلسطين وتبينوا المخاطر التي ستترتب عن ذلك. لأنها قسمة ظالمة وغير عادلة "لأن الجزء اليهودي في هذا القرار شكل نواة الدولة اليهودية الوليدة، فقد أعطى اليهود 56 % من أراضي فلسطين في حين أنهم كانوا يمثلون 5,6 من نسبة السكان قبل التقسيم".[17]

جاء في قصيدة لمحمد العيد آل خليفة :

يَا قِسْمَةَ الْقدسِ أَنتِ ضِيزَى لَمْ يَعْدِلْ الْقاسمونَ فَيكِ
مَضَوْا عَلَى الْحَيْفِ لَمْ يبَالوا بِمَا جَرَى مِنْ دَمٍ سَفِيكِ
الْقدْسِ لِلْعرْبِ مِنْ زَمَـــانٍ لَنْ يَقْبَلوا فِيهِ مِن شَرِيكِ
قَدْ سَامَه الأَجنبِي خَسْفًـــا وَهَدَّ مِنْ رُكْنِه السَّمِيكِ[18]

ولم ينس الشاعر الجزائري في هذه السنوات الصعبة عليه وعلى إخوانه الفلسطينيين أن يفضح الاستعمار وأعماله سواء في الجزائر أم في فلسطين وكشف مؤامراته ومخططاته القريبة والبعيدة الأهداف والمرامي. كما كشف ما كان يقوم به اليهود الملاعين من فضائع وجرائم إزاء العرب في فلسطين. فها هو ذا الشاعر أبو الحسن علي بن صالح، بعد أن يبين جرائم العدو الأول الإنجليز، يصور ما كان يقوم به اليهود من أفعال يندى لها جبين الأحرار:

هَجَموا بِالسلاَحِ مِنْ كلِّ صِنْـــفٍ يَذْبَحونَ الْشيوخَ وَ الغِلْمَانَـــا
اسْتَبَاحوا الأَعْرَاضَ، كَمْ مِنْ بطونٍ بَقَروهَا كَمْ أَحْـرَقوا جثْمَانَا
فِي ارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ الْموبِقَـــاتِ ! السودِ قَدْ أَطْلَقَ الْيَهود الْعِنَانَا[19]

وحين اندلعت ثورة 1936 "خلّد الشعراء شهداء ثورة 1936، وأبطال معركة القسطل"[20]. واستمرت الكتابة عن القضية الفلسطينية شعرا ونثرا فكتب عبد الحميد بن باديس مقالا بعنوان "فلسطين الشهيدة" أوضح فيه بعمق ودراية ما كان يحاك لفلسطين من قبل الصهيونية العالمية، وبين أن القضية لا تهم الفلسطينيين وحدهم وإنما هي قضية المسلمين جميعا وكل اعتداء على الأقصى فهو اعتداء على مكة المكرمة أو المدينة المنورة.[21]

لقد أوضح الأدباء الجزائريون أن الأراضي الفلسطينية قد بيعت لليهود وقبض الإنجليز الثمن ذهبا خالصا صرفا، وفضلوا المال على العدل و الحق والشرعية. وشرعوا قانونا جائرا يسمح لهم بالتصرف فيما لا يملكونه 22. يقول محمد العيد :

إنّ الذينَ زَعَمَ الْعَدَالَة شِرْعَةً آذَى (الأَئِمَةَ) فِي رِضَى الأَحْبَارِ
وَدَهَى الْعمومَةَ فِي وَشَائِجِ نَسْلِهَا وَسَطَا عَلى الأَجْوَارِ بِالإِجْوَارِ وأحلّ
بَالْقَانُونِ جرمًا فَادِحًا وَأَذَلّ دِينَ اللّهِ لِلدّينَارِ
قلْ لابن صَهْيونَ اغْتَرَرْتَ فَلاَ تَجرْ إنّ ابْنَ يَعْرِبَ نَاهِضٌ لِلثّارِ[23]

فجرت المأساة الفلسطينية في هذه السنوات مكامن الحزن الدفين في الأعماق الجزائرية وتبين جليا أن الاستعمار هو الاستعمار؛ فرنسيا كان أو إنجليزيا هدفه واحد وخططه واحدة مدروسة وأهدافه ومصالحه قبل مصالح الشعوب بل فوق حقوقها، لذلك نجد الشاعر أبا الحسن علي بن صالح يرى أن القضية الفلسطينية و القضية الجزائرية واحدة، كلاهما مستعمر، ينشد الاستقلال ويطالب بحقه في أرضه وخيراته ومصيره. قال :

فَفلَسْطِين تَسْتَغِيث وَهَلْ فِي الْـ قَيْد مَنْ يَنْجِد الْضَعِيفَ الْمُهَانَا
مَنْسم الاسْتِعْمَارِ قَدْ وَطِئَ الإِسْـ لاَمَ شَرْقًا وَ مَغْرِبًا فَأَهَانَا
طَالَ لَيْل اسْتِعْمَارِنَا فَمَشَى الْفَجْـ ـر يَنِير الْطّرِيقَ نَحْوَ علاَنَا
وَمَتَى يَسْتَفِيق مِنَّا ضَمِير وَمَتَى تَنْجَلِي مَتَى بَلْوَانَا
لَيْتَ عمْرِي يَطول حَتَّى أَرَى الثوارَ مِنا قَدْ حَرَّروا الأَوْطَانَا[24]

وظل الشعر العربي الجزائري الحديث خلال الحقبة الزمنية ما بين (1930-1948) يحرض على الجهاد ويسترفد الهمم على العطاء والبذل والمعونة للاخوة الأشقاء في فلسطين. وعلى الرغم مما كان يعانيه الشعب الجزائري من فقر وفاقة واحتياج، بسبب الاستعمار، فإنه يؤثر على نفسه ويجل الإخوة على النفس. ولا تكاد تصدر جريدة دون أن نجد بها قصيدة أو مقالة تصور الحالة في فلسطين وتدعو إلى نصرتها بكل غالٍ ونفيس[25] متناسين حالهم المزرية أو قل متسامين عن جراحهم ومآسيهم الشخصية.

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية (1939-1945) توقفت جل الصحف العربية في الجزائر لأسباب مختلفة، ولم تعد للظهور إلا بعد انتهاء تلك الحرب المدمرة. وقد استغل اليهود الملاعين مدة الحرب الظروف لخدمة أغراضهم وتحقيق أهدافهم، فوطدوا لأنفسهم في أرض فلسطين وأحكموا الحلقة على البلاد والعباد. ولم تكد تنته الحرب إلا واليهود على أكمل استعداد لإعلان دولتهم على أرض فلسطين المغتصبة. وقد كان للشعر الجزائري الحديث صولة وموقف جديد مع القضية الفلسطينية بعد نكبة 1948.

إن الدارس للأدب الجزائري -الشعر خاصة- منذ النهضة الأدبية خلال العشرينيات من القرن العشرين، يلحظ أن هذا الشعر رغم كل المحن والمآسي التي كان تتخط فيها الشعب الجزائري، بسبب الاستعمار الذي حاول خنقه داخل حدود محروسة من كل مكان، مع ذلك كله، "فالجزائر رغم الستار الحديدي الذي ضربه حولها الاستعمار الفرنسي منذ الاحتلال حتى الاستقلال لم تنفصل عن الوطن العربي، ووقف الشعب الجزائري وأدباؤه ضد سياسة العزل و التفرقة بنفس القوة

التي رفضوا بها سياسة الاندماج في الجنسية الأجنبية"[26]. ولم تنسهم مآسيهم الداخلية وقضاياهم الوطنية ما كان يعانيه إخوانهم في مختلف البلدان العربية والإسلامية، لأنهم كانوا يشعرون أن جسم الأمة العربية واحد لا يمكن فصل أي جزء منه عن الآخر. "ومن هنا نشأ ذلك التعاطف بل ذلك الترابط الوثيق بين الوطن وبين العروبة، بين الوطنية والقومية، بين الجزائر والعالم العربي، الأمر الذي يفسر تعلق الجزائريين بالشرق وبالأمة العربية، كما يفسر الاهتمام بقضية فلسطين بوجه خاص".[27]

في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر المعاصر، امتزجت فيه المشاعر الوطنية بالمشاعر القومية فغدت واحدة، موحدة، ذلك لأن الجزائريين على وجه الخصوص يرون أن القضايا القومية والوطنية والإسلامية واحدة، وعليه "والدعوة إلى الوحدة العربية والدعوة الوطنية ممتزجتان"[28] إلى درجة اعتبارها وجهين لعملة واحدة، الأمر الذي يمكننا من القول بكل ثقة وتأكيد مـــع الركيبي: "إن الدارس للأدب الجزائري يلاحظ ظاهرة متميزة في كتابات الجزائريين شعرا ونثرا وهي الانطلاق من الواقع الوطني إلى الواقع العربي من رؤية عربية شاملة، بحيث يجدر أن نجد قصيدة تتحدث عن قضية وطنية وترتكز عليها وحدها دون الربط بينها وبين القضايا العربية الأخرى".[29]

والشيء الذي ألاحظه على الشعب الجزائري تجاه القضية الفلسطينية في هذه السنوات (1930-1948) أنه كان يمثل مرحلة التفجع والتحسر على ما حدث في فلسطين من يقدم لليهود وتأخر واندحار للعرب الذين خذلهم الإنجليز ومكنوا لليهود لإقامة دولة. كما مثل لنا النظرة الإسلامية الصرفة للقضية ككل

باعتبارها تتعلق بمكان من أهم المقدسات في الوجدان العربي والإسلامي بعد مكة والمدينة.

فلسطين في الشعر الجزائري من 1948-1954:

ولما انكشفت المؤامرة، وأتضح الأمر لما كانت تخطط له القوى الإمبريالية و الصهيونية في دهاليز الحكومات والدول والهيئات الأممية، وصدر القرار 181 عن الجمعية العامة للأمم المتحدة والقاضي بتقسيم فلسطين إلى قسمين، هب الأدباء والشعراء الجزائريون يناصرون الشعب العربي في فلسطين "كما أهاجوا العواطف أثناء حرب 1948 وهاجموا التقسيم ونادوا بالثأر وتوعدوا اليهود، كل ذلك في شعر ينبض بالحب لفلسطين والنقمة على أعدائها، والحزن على جزء غال من الوطن العربي يهدده الضياع وتقاسمته الأهواء".[30]

وصدع الشعراء عاليا رغم قمع الاستعمار الفرنسي وحزت في نفوسهم النكبة وتألموا ألما قاسيا زاد في محنتهم وضاعف من أحزانهم، فدعوا جهارًا إلى الجهاد والمشاركة في غمار المعركة ضد اليهود. قال محمد الجريدي:

أَيَا شَعْب جَاهِرْ بالْقِتَالِ عَلَى الْعِدَا فَلَمْ يَبْقَ فِي دَفْعِ الْظُلْـــمِ كِتْمَـــانِ
فَلَوْلاَ الْتِهَاب الْعنصرِيَة فِي الْحَشَا لَمَا اسْتَفْحَلَتْ صَهْيون والْدَاسَ عربَان
فَوَا عَجَبَا مِنْ قِصَة الأُلسْدِ قَدْ غَدَتْ يهَاجِمهَا فِي الْمَرْبَضِ الْيَوْمَ خِرْفَـــان[31]

ولم تقتصر المساندة على الجانب المعنوي من الجزائريين لإخوانهم في فلسطين، بل كانت المآزرة و المناصرة بالكلمة -شعرا ونثرا- وبالمال أيضا. فالبرغم من الضائقة المالية التي كان يمر بها الإنسان الجزائري في تلك الحقبة فقد "فتح باب

التطوع ونظمت المحلات لجمع التبرعات ومساعدة الثوار، وقد كانت قلوب الجزائريين يخفق بحب فلسطين ومشاعرهم تغلي لنكبة هذا الشعب الشقيق"[32].

فهذا الشاعر أحمد سحنون، يسترفد العرب والمسلمين لنصرة الجيوش العربية في فلسطين بالمال ويحث الشعراء لحفز الهمم وإلهاب المشاعر ويبين دور الكلمة -الأدب- وماله من دور في المعركة:

لَقَد جَدَّ جَدّ الْعرْبِ فاقْتَحمـوا الْوغَـى وَلاَ تَدْفَعوا جدَّ الْحَوَادِثَ بِالْهَـزْلِ
وَيَا أَغْنِيَـاءَ الْمسْلَمـينَ تَسَابَقـوا إِلَى الْبَذْلِ وَ الإيثار ذي سَاعَة الْبَذْلِ
وَيَا شعَرَاءَ الضَّاد حثوا شعوبَكـمْ ! بِشِعْرٍ يدَاوِيهَا مِنْ الْجبْنِ وَ الْبخْـلِ
فَمَا الشِعْـر إلاَّ ثَوْرَة غَيْرَ أَنَّـهَا تَصَول بِلاَ كَفٍّ وَتَسْعَى بِلاَ رِجْـلِ[33]

استجاب الشعب الجزائري لكل نداء يخدم القضية الفلسطينية، وما تثاقلت الجزائر ولا تباطأت بل "لبى الشعب الجزائري النداء على غرار الشعوب الإسلامية الأخرى، وأحيت العاصمة التي أصبحت تابعة لحركة الإصلاح الإسلامي الذي دعا إليه العقبي، الذكرى بقلوب خاشعة ورفع المصلون دعاءهم إلى الله خلال الجمعة لنصرة فلسطين وفي مساء ذلك اليوم احتضن نادي الترقي الآخر ذكرى يوم فلسطين السليبة".[34]

والتحق بأرض فلسطين كثير من المتطوعين والمجاهدين من الجزائر للمشاركة في الحرب الدائرة هناك، وتركوا خلفهم قلوبا تنفطر وأكبادا تتحرق لعدم القدرة في المشاركة بالنفس في هذه الحرب المقدسة في نظر الجزائريين. وتأسى الشعراء لتخلفهم بالأجساد لظروف موضوعية استعمارية كانت تحول بينهم وبين المشاركة الفعلية فشاركوا بالكلمة! قصيدة، ومقالة، وخطبة قال أبو بكر مصطفى

بن رحمون في قصيدته "فتى الهيجاء" محرضا على الجهاد داعيا إلى مغالبة العدو بكل عزم وثبات:

فَتَى الْهَيْجَاءِ بِلَّغْتَ الْمَنَالاَ وَأَرْغَمْتَ الْعِدَى فَنَعِمْتَ بَالاَ
فَفِي ثَغْرِ الْجِهَادِ افْتَرَّ فَجْرًا وَفِي أُفْقِ الْفِدَى أَشْرِقْ هِلاَلاَ
وَرِدْ نَهْرَ الْمَجَرَّةِ فِي جُنُودٍ يَرَوْنَ الْمَجْدَ فِي الدُنيَا قِتَالاَ[35]

غير أن المعطيات والأحداث المتداخلة على الساحة لم تكن في صالح العرب ولا صالح الفلسطينيين. وتسارعت الأحداث والتطورات على الساحة فـ"تدخلت هيئة الأمم الموقرة لتفرض هدنة إجبارية على المقاتلين جميعا. وخلال عشرة أيام من إعلان الهدنة كانت سيول من السلاح والرجال تجيء إلى العصابات اللاهثة، ثم صدرت أوامر إلى بعض الجيوش العربية بالانسحاب ثم اصطنعت هزيمة للعرب كلهم أمام اليهود".[36]

نزلت هذه الأخبار المفزعة كالصاعقة على نفوس الجزائريين، فازدادت الحسرة وتضاعف الأسى والهالت القصائد وسالت العبارات باكية ضياع فلسطين وخيبة الآمال وتبخر الأحلام. وصدم العرب عامة، والجزائريون خاصة، بهذه النكبة، فازدادت آلامهم، أضعافا مضاعفة، لما يلاقونه من عنت استعماري وتشف من الفرنسيين بسبب هذه الفاجعة!. نكبة فلسطين في 1948، التي عامل فيها الجزائريون بكثير من القسوة وحرض عليهم الآخرين. إذ "إن الكثيرين من أبناء الشعب الجزائري أثناء هذه الحرب خرجوا يمشون على الأقدام محاولين تخطي هذه الحواجز، فمنهم من وصل ومنهم من تلقفته سجون الاستعمار ومعتقلاته بليبيا

تحت الحكم الإيطالي أو في سجون تونس والجزائر تحت الاستعمار الفرنسي قبل أن يصلوا إلى فلسطين".[37]

لكن الشاعر الجزائري ظل يحدوه الأمل في النصر لشعبه ولشعب فلسطين برغم كل المحن والمآسي وما هذه النكبة إلا لظروف عارضة سيكون لها في القريب العاجل شأن آخر. يقول محمد الجريدي في قالب حكمة تحتاج إلى تفكير وإيحاء يحتاج إلى نباهة وتفطن من قرائه في الجزائر وغيرها:

وَهَمكَ هَمي يَا فلَسْطين فَاصبِري فإنّ اهْتياجَ المَوْجِ تفْنيه شطْآن

وَلَيْستْ لبَحْرِ الْظلمِ إلاّ شَوَاطئَا وَلَيْسَ لِمَوْجِ الْظلْمِ بَعْدَكِ طفْيَان[38]

ثم واصل الشاعر الجزائري كفاحه؛ يدافع عن القضية الفلسطينية برغم النكبة وما ترتب عنها من خيبة آمال. فتوجه إلى النشء الجديد من التلاميذ والطلاب ينظم القصائد والأناشيد الهادفة. فكتب الشاعر الربيع بوشامة نشيده (صوت الجهاد) قائلا:

فَوقَ الْعرْب هَيَا فَلسَبَّ الْنِدَاء وَلاَقِ الْمَنَايَا بِسَاحِ الْفِدَاءْ

فِلَسْطِين فِي الْنارِ نَهْبَ الْعِدَاءْ تنَادِي الْجِهَادَ الْجِهَادَ الْجِهَادْ[39]

كما كتب بالروح نفسه و الحماسة نفسها الشاعر موسى الأحمدي نشيد (فلسطين تناديكم للجهاد):

فَلَسْطِين تنَاديكمْ لِلْجِهَادْ فَلَبوا الْنِدَا يَا حمَاةَ الْبِلاَدْ

وَهبوا جَميعًا سرَاعًا إِلَى حمَى يَعْرب وانْفروا لِلْطِّرَادْ

وَمدوا الْنفوس إِلَيْهَا فِدًى فَتلْكمْ بَنِي الْعرب أَرْضَ الْمَعَادْ[40]

نظر الشاعر الجزائري إلى النكبة على أنها مجرد كبوة تعقبها نهضة جبارة تعيد للعرب حقهم. واستغل الشعراء كل مناسبة مثبتين حق العرب في فلسطين[41] وكانت هذه السنوات كالحة على الشعب الجزائري لما كان يفرضه عليه الاستعمار الفرنسي من قيود واضطهاد وعنت. فوجدوا في القضية الفلسطينية بعد النكبة متنفسا، نفسوا فيه عن أرواحهم ومكبوتاتهم تجاه الوطن وإن كانت النكبة قد زادت في مأساتهم وحسرتهم، ومع ذلك فقد كانت ردة الفعل عندهم إيجابية إلى أبعد الحدود ففضحوا الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والصهيوني الحقود.

وحين رأى الجزائريون بعض التخاذل تجاه القضية الفلسطينية من إخوانهم؛ هنا وهناك مكتفين بالخطب والتنديد اللفظي، والشجب والشكوى والاحتجاجات التي لا تقدم و لا تؤخر شيئا[42]، حينها فصور الشاعر حمار أبو القاسم تلك الحال فقال:

إنَمَا السبَة وَ الْعـَـار عَـــلَى ... مَنْ يَرَى {الرَّمْزَ} مَدَاسًا منْكَسِرْ
إنَّمَا الْعـــَـار عَلَىَ مَنْ يَبْتَغِي ... دَوْلَةَ الْفسْقِ وَيَرْضَى إنْ غـَـدَرْ
إنَّمَا الْعَار عَلَى قـَـوْمِيَ وَقَدْ ... جَمَدوا لَوْلا شكَـاوَى تنـــُـثَرْ
دَوْلَة الْصَهْيون تَسْعَى سَعْيَهَا ... وَسعَاة الْعرب مَرْضِي تَعْتَـــذِرْ
كلَّمَا دَاسَ يَهودي عَلـــَى ... أرْضنَا كَاللص ضَجوا كَالبَقـَـرْ
لَسْت أدْري و الَّـذي أعْلَمه ... أنَّنَا فِي كـــلِ يـــَوْمَ نَنْتحـــرْ
قَدْ أحَاقَتْنَا البَـــلاَيَا كـــلنَا ... وَالْبَلاَيَا لاَ تدَاوى بالهَـــــذَرْ[43]

وتزداد المحنة عمقا والألم حدة حين يرى الشاعر اليهود كل يوم يعملون على توسيع الرقعة التي احتلوها مستزيدين مما قدروا عليه من أرض الفلسطينيين؛

حتى يحققوا حلمهم الصهيوني ومشروعهم التوارثي المبني على الأسطورة التوارتية والخرافة التلمودية (دولة اليهود من النيل إلى الفرات) فيقول حمار في خطابه عالية ونبرة حادة وأسلوب متشنج يعكس حالته النفسية إزاء الموقف الرهيب:

أَلاَ نَعَتَبِرُ.
وَفِي كلِ يَوْمٍ نعَانِقَ ضر.
وَنَلْهو وَلاَ نَرْعَوِي.
وَنَحْنُ الْعَبِيدْ.
لِرَبِ الْحَدِيدْ.
وَفِي فِلَسْطِين الْبغَاة اليَهودْ.
تَدوس الْحُدودْ.44

ولكن إسرائيل لا تخاف التصريحات والاحتجاجات و الخطب، إذ لا يردها عن غيها إلا القوة و الحديد. فيدعو الشاعر إلى خوض المعركة بالأرواح والنفوس وبذل المال من القادرين[45].

ولا ينسى الشاعر أن يصور لنا الوضع المزري الذي وصل إليه الفلسطينيون من تشرد وضياع ولكن صمودهم وصلابتهم وتحديهم وبسالتهم في مواجهة تلك الأوضاع وتصديهم لمعركة غير متكافئة؛ جعله ينبهر بمثل هذه البطولات فهذه صورة للمرأة الفلسطينية الصامدة صمود الجبال الراسخة رافعة هامتها متحملة كل ضيم وحيف تمد شعبها بالقوة المعنوية والطاقة اللامحدودة. فقال حمار:

وَدَعَا فَتَاتِي.
وَلاَ تَجْزَعِي ثُمَ لا تَجْزَعِي.

أخوك سيغدو رفيقًا معي.
لقدْ خاضها ثورةً كالجحيم.
إلى أنْ رمتْه سهام اليهودْ.
فلا تحزعي.
وقولي لعينيك لا تدمعي.[6]

والملاحظة التي نسجلها على الشعراء الجزائريين برغم محنة الاستعمار الفرنسي على وطنهم هي "أن الشعراء الجزائريين -بعد النكبة- لم ينعزلوا أو يهربوا إلى ذواتهم يجترون المحنة ويرددون أصداء الهزيمة في قصائدهم...وإنما استمروا في نغمتهم العالية يحثون الجماهير على الكفاح أو يحللون الظروف وينشرون قصائدهم في صوت جهير كالذين سبقوهم قبل النكبة بلا يأس أو تشاؤم سوى ذلك التشاؤم الإيجابي -إن صح التعبير- وأعني به الذي يدفع إلى الثورة لا إلى الهروب من الواقع".[7]

فهذا الشاعر أبو بكر مصطفى بن رحمون يحث على مواصلة الجهاد وبذل الغالي و النفيس دون هوادة لاسترجاع فلسطين في أسلوب كله تحد واعتزاز:

مَاةَ الْحَقِ وَ الْشَرْقِ الْمفَدَّى فِدَاكمْ كـل مَنْ نَصرَ الْضَّلاَلاَ
بِزَغْتمْ فِي دَيَاجِي الْظلْمِ زَهْرًا وَطفْتمْ حَوْلَ هَامَتِهِ نِصَـالاَ
وَ مَا قَاوَمْتمْ جبْنًا وَلَكِـنْ حمِيَات وَأَعْراضًا وَمَـالاً
دَعوا دَمْعَ الأَسَى يَهْمِي سيولاً لأَحْزَانِ الأَرَامِلِ وَ الثكَـالاَ
فَلَا غَسَلَتْ دموع البؤْسِ ذلاً وَ لاَ دَرَأَ الأَذَى حَزْن الْكسَالاَ
وَمَا يجْدِي الْبكَاء عَلَى ذَلِيـلٍ يجَرَّع كـلّ آوِنَةٍ نَكَـالاً[8]

وخلاصة القول التي يمكن أن نثبتها هنا هو أن الشعراء الجزائريين في هذه المرحلة من تاريخ القضية الفلسطينية -النكبة في عام 1948- قد فجعوا فجيعة بالغة كادت تذهب بنفوسهم حزنا وتزهق أرواحهم كمدا من هولها، لأنهم كانوا يرون أن النكبة هذه ستزيد من مأساتهم الوطنية لكنهم لم يستسلموا وكانت ردة الفعل عندهم إيجابية. دعوا إلى الجهاد والثبات والتمسك بالحق مهما كانت الظروف سواء في وطنهم الجزائر أو في وطنهم الثاني فلسطين. وكشفوا الاستعمار الفرنسي والإنجليزي والصهيوني، وأبانوا على أنهم على ملة واحدة يهدفون إلى استغلال خيرات الشعوب واغتصاب حقوقهم وإن تلونوا في وجوه متعددة ولبسوا أثوابا مختلفة فالكفر ملة واحدة كما يقولون.

الهوامش:

[1] انظر، د/عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 680.

[2] د/أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 114. وانظر كذلك، د/محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من 1847-1939، ص 73.

[3] محمد العيد، الديوان، ص 259.

[4] انظر د/أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 115.

[5] انظر. د/يحي بوعزيز، أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة ج2 ص، 151 و ما بعدها.

[6] انظر، صالح خرفي، الجزائر و الصالة الثورية، ص 33 وما بعدها وكذلك د/محمد ناصر، عمر راسم، المصلح الثائر ص ص: 29، 81، 82، 87.

* يحسن قراءة كتاب فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولين، وكذلك، كتاب عيسى شنوف، يهود الجزائر 2000 من الوجود.

[7] صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثورية، ص 36.

[8] جريدة ميزاب ع 14، جانفي 1930. ص 1

[9] صالح خرفي، الجزائر والأصالة الثورية ص 48.

[10] د/محمد ناصر، عمر راسم، المصلح الثائر، ص 37-38.

[11] محمد العيد، الديوان، ص 330.

[12] انظر د/عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ص 631 وما بعدها. وكذلك سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث ص 35 وما بعدها.

[13] عبد الرحمن بن العقون، الديوان، ص 20.

[14] أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 116.

[15] انظر، كمال عجالي، الطيب العقبي أديبا، ص 419 وما بعدها.

[16] صالح خرفي، الجزائر و الأصالة الثورية، ص 49. وانظر كذلك، سعد الله، دراسات، ص 116.

[17] محمد أحمد صالح، تمويد القدس، الفيصل ع 289 بالسنة 25 رجب 1421 هـ سبتمبر، أكتوبر 2000 ص67.

وانظر كذلك، الطيب العقبي، كارثة فلسطين، البصائر ع 78، 13 أوت 1937.

[18] محمد العيد، الديوان، ص 314.

[19] أبو الحسن علي بن صالح، مآسي وأين الآسي، ص : 30.

[20] سعد الله، دراسات ص 116.

[21] عبد الحميد بن باديس (فلسطين الشهيدة) الشهاب ج6 ـ مجلد ـ 14 أوت 1938.

[22] انظر، عودة بطرس عودة، القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص 350 وما بعدها.

[23] محمد العيد، الديوان، ص 330.

[24] أبو الحسن علي بن صالح، مآسي وأين الآسي، ص 31.

[25] أنظر د/ عبد الله الركيبي، قضايا عربية، ص 56 وما بعدها.

[26] د/ عبد الله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى ص 179.

[27] المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[28] محفوظة قداش، المقاومة السياسية، ص 24.

[29] د/ عبد الله الركيبي الأوراس في الشعر العربي، ص 201.

[30] أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 116.

[31] صالح خرفي، الجزائر و الأصالة الثورية، ص 50.

[32] د/ عبد الله الركيبي، قضايا عربية، ص 65.

[33] أحمد سحنون، الديوان، ص 129.

[34] أحمد مريوش، القضية الفلسطينية في اهتمامات الشيخ الطيب العقبي، مجلة الدراسات التاريخية ع 09 1415 هـ /1995، ص 243.

[35] ابن رحمون، الديوان ص 115.

[36] محمد الغزالي، جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج، ص157. وانظر، كذلك عودة بطرس عودة، القضية الفلسطينية في الواقع العربي، ص 442 وما بعدها.

[37] د/ عبد الله ركيبي، قضايا عربية، ص 65.

[38] صالح خرفي، الجزائر و الأصالة الثورية، ص 51.

[39] الربيع بوشامة، الديوان، ص 177.

[40] عبد الله ركيبي، قضايا عربية، ص 66.

[41] أنظر احمد سحنون، الديوان، ص 197-198.

[42] أنظر أبو القاسم خمار، إرهاصات سرابية، ص من زمن الإحتراق، ص 09.

[43] المرجع السابق ص 44.

[44] المرجع السابق، ص 38.

[45] أنظر، م س، ص 45.

[46] محمد أبو القاسم خمار، أوراق، ص 121-122.

[47] د/ عبد الله ركيبي، قضايا عربية، ص 70.

[48] ابن رحمون، الديوان، ص 82.